

المحددات الثقافية والاجتماعية للمراهقة

د. زلوف منيرة

أستاذة محاضرة

قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا جامعة الجزائر 02

ملخص الدراسة:

تعتبر مرحلة المراهقة حياة جديدة بالنسبة للمراهق، حيث تزداد أهمية العلاقات الاجتماعية بالنسبة له، وتتفاقم صراعاته وتتغير انفعالاته. هذا وتعتبر المراهقة المرحلة التي يحدث فيها الانتقال التدريجي نحو النضج الجسمي والجنسي والعقلي والنفسي والاجتماعي. والحديث عن هذه الفترة المعقدة من التحول والنمو يدعونا إلى التعرض إلى المفاهيم الخاصة بالمحددات الاجتماعية والثقافية للمراهقة.

الكلمات المفتاحية:

المراهقة ؛ المحددات الثقافية؛ المحددات الاجتماعية؛ النمو.

مقدمة وإشكالية الدراسة:

تعتبر المراهقة فترة من حياة الفرد، تبدأ في نهاية طفولته وتنتهي في بداية بلوغه سن الرشد ، وهي فترة انتقالية يمر المراهق من خلالها إلى الاستقلال عن أسرته ، إلى أن يصبح شخصا مستقلا ذاته بذاته¹.

غير أن هذا الانتقال من طفل يعتمد كل الاعتماد على أسرته إلى كائن راشد مستقل ل، يتطلب توافقا جديدا تفرضه ضروريات التمييز بين سلوك الطفل وسلوك الراشد.

يربط Stanley Hall بين الناحية النفسية الانفعالية والاجتماعية في تحديده لمفهوم المراهقة الذي يرى بأنه فترة عواصف وتوتر وشدة، تكتنفها الأزمات النفسية، ويسودها المعاناة، والإحباط والصراع والقلق والمشكلات وصعوبات التوافق. **محمد عماد الدين إسماعيل (1982).**

مما يوضح تأثير الجانب الانفعالي والوجداني على عملية التكيف والاندماج الاجتماعي والارتباط الوثيق بين مجمل المشاكل النفسية والاضطرابات السلوكية الاجتماعية المميزة في هذه المرحلة.

ومن هذا المنطلق، تعتبر المراهقة عملية بيولوجية عضوية في بدايتها وظاهرة اجتماعية في نهايتها.

¹ فاخر عاقل. علم النفس التربوي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1980

تؤدي مجمل التغيرات البيولوجية 4 والفيزيولوجية بالمراهق إلى سلسلة من التغيرات النفسية، تدفعه إلى الاستقلال عن أسرته وتكوين روابط وعلاقات مع مواضيع أخرى.

غير أن الصراع الانفعالي الذي ينشأ بين مجموعة دوافع قوية تركز حول البحث لنفسه عن مكانة في المجتمع، وبين موانع العالم الخارجي قد يكون في ذاته مشاعر مختلفة من القلق والخوف وعدم الاستقرار.

ولما كانت المراهقة مشحونة بتنوع التحولات المتغيرة والممتدة حسب الأطوار المختلفة لها فإنها تشكل مرحلة حساسة، ذات تحولات نفسية واجتماعية وبيولوجية وعقلية واضحة، عن طريقها ينتقل الفرد من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد، ومن ثمة فهي تتميز بسيكولوجية خاصة تبنى على أساسها خصائصها التي يستجيب لها المراهق بسلوكات معينة.

1 - النمو الاجتماعي عند المراهق:

يتصف النمو الاجتماعي عند المراهق بخصائص مختلفة ، وقد اتفق كل من فؤاد البهي السيد (1975)¹ ومحمد مصطفى زيدان (1975)² في تحديد مظاهرها ومميزات النمو الاجتماعي في مرحلة المراهقة ، حيث لخص محمد مصطفى زيدان (1975) خصائص هذا النمو في نقطتين أساسيتين هما : التألف والنفور.

¹ فؤاد البهي السيد، علم النفس الإحصائي وقياس العقل البشري، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1975.

² محمد مصطفى زيدان، دراسة سيكولوجية تربوية لتلميذ التعليم العام، دار الشروق للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1975.

فمن خلال التطور الاجتماعي للمراهق، ينجم عنه مظاهر مختلفة كوثوقه بنفسه وتأكيده لذاته وتفاعله مع جماعة الأقران واتساع مجال تفاعلاته واحتكاكاته الاجتماعية.

وفي نفس الوقت، تبدو عليه مظاهر تمرده على الراشدين وتعصبه لأرائه وآراء جماعة أقرانه وغير ذلك مما يشابهه.

تتضمن حاجة المراهق إلى النمو، الحاجة إلى فرض شخصيته بغية تأكيد ذاته، لهذا يهتم اهتماما بالغا بحياته الدراسية.

فهو يسعى أن يحقق حاجته إلى التغلب على مختلف المعوقات التي تظهر في حياته لأن يصبح بعد ذلك سويا وعاديا.

إذن، في هذه المرحلة من المراهقة يكون الحماس شديدا في البحث عن دور في المجتمع والاندماج في جماعة الرفاق.

وإذا وجد المراهق كل ما يعمل على إشباع حاجاته في جماعة أقرانه، أدى ذلك إلى سهولة تكيفه مع أفرادها.

ويساعد هذا التكيف السريع على اتساع دائرة التفاعل الاجتماعي.

وبالمقابل، تتطلب حاجة المراهق إلى النمو، حاجته إلى التحرر من سيطرة الأسرة بهدف تأكيد استقلاليته.

فقد يبذل كل ما في وسعه لإقامة وجوده ككائن مستقل، لأن الأسرة من وجهة نظره تحد من حرية سلوكه، الأمر الذي يتناقض مع تحقيق ذاته وإثباتها.

كما يبدي سلوكيات عدوانية كالنقد اللاذع، والألفاظ غير اللائقة، وهي مظاهر تعكس ظاهرة القلق و التوتر التي يعيشها باعتبار أن المراهقة هي مرحلة الانبثاق الوجداني وفترة التحولات النفسية العميقة.

ويعتبر التنافس مع جماعة النظائر من أهم أشكال ظاهرة النفور بالرغم من محاولة خضوعه لأساليبها ونظمها والاندماج فيها.

فيميل المراهق إلى منافسة رفاقه في إبراز نشاطاته المختلفة لاسيما النشاط المدرسي، وذلك حماية لاهتماماته وسعيا لتحقيق غاياته وأهدافه.

وباعتبار أن التنافس يكون منبعثا من احتياجات المراهق الذاتية، فإنه يشكل أسلوبا لتأكيد الذات وتحقيقها، ومن خلاله يخوض المراهق مع تجارب جديدة تدفعه إلى اكتشاف إمكانياته وقدراته.

في الوقت نفسه تتخلل أنواع هذا النمو، صراعات متعددة لاسيما مع المجتمع حيث يصبح ينظر إليه المراهق نظرة متغيرة عما كان في مرحلة الطفولة

من أجل هذا يؤدي عدم تفهم الكبار لأحاسيس المراهق برغبته الملحة في الاستقلال الذاتي إلى حدوث الصراع، خاصة و أنه أصبح يشعر لم يعد طفلا، وإحساسه بالقيمة الاجتماعية للتغيرات الجسدية ظل متجليا¹.

في ضوء ذلك، يحدث له تقلبا اجتماعيا، فتتغير نظرتة للمجتمع، ويرى فيه ما لم يكن يدركه من قبل.

بإمكان تفسير هذا النوع من الصراع بتفسيرات نفسية واجتماعية.

¹ زين العابدين درويش، علم النفس الاجتماعي: أسسه وتطبيقاته، الطبعة الأولى، مطابع زمزم، القاهرة، 1993.

يرجع تفسيره إلى أنه عملية نفسية داخلية إلى أهمية تمرد المراهق في اكتساب الفهم الواسع لمحيطه، وإدراك صورته الذاتية بصفة أوضح.

بينما يعود تفسيره إلى أنه ظاهرة اجتماعية إلى الاعتقاد بوجود فجوة بين جيل الآباء وجيل الأبناء أو عبارة أخرى وجود " فجوة جيلية " باعتبارها أمرا حتميا تقتضيه التغيرات السريعة في المجتمع.

في ضوء ما سبق ذكره، يتضح لنا أن الارتقاء الاجتماعي للمراهق يمضي في اتجاهين هما: نمو شعوره بذاته، وزيادة اندماجه في الجماعة.

وفيما يتعلق بطريق المعارضة الذي يتخذه المراهق، فإنه يشكل بالنسبة له وسيلة لإثبات وفرض شخصيته على الآخرين، حيث أنه لا يعمل على تأكيد أفضل لذاته إلا إذا عارض موقفا ما أو كان ضد أشخاص معينين.

ومن هنا يتضح جليا أنه من مظاهر النمو الاجتماعي لدى المراهق التحرر من قيود الأسرة وتأكيد الذات والعمل على تحقيق وتعزيز المكانة الاجتماعية.

إضافة إلى اتساع دائرة التفاعل والعلاقات الاجتماعية التي تعزز الشعور بالاستقلالية الذاتية لاسيما الاحتكاك بجماعة الأقران.

وكنتيجة لهذا التفاعل الاجتماعي، يكتسب المراهق القدرة على التصرف في المواقف الاجتماعية المختلفة.

2 أزمة المراهقة:

تعتقد الباحثة أن الثقافة الاجتماعية تؤثر بشكل كبير على استجابات المراهق، ولا يمكن فهمه إلا في إطار ثقافته التي يعيش فيها، حيث يلعب المجتمع دورا كبيرا في تحديد تصرفات المراهق وتساهم ثقافته بقسط واسع في التأثير على الأنماط السلوكية

للفرد، إذ تمثل هذه الثقافة بشكل أو بآخر مفهوما لذات الفرد، وهذا بدوره يعمل على التأثير في الاتجاهات ومختلف الاستجابات والسلوكيات.

وتكون التغيرات النفسية عند المراهق ليست بالضرورة ناتجة عن التغيرات الجسمية فحسب، بل أيضا نتيجة الثقافة الموجودة في البيئة التي يعيش فيها¹، وطالما أن أزمة المراهقة تشير إلى الاضطرابات السلوكية المميزة في هذه المرحلة، فإن هذه الاضطرابات تتأثر بالبيئة والثقافة التي يتفاعل معها المراهق.

انطلاقا من هذا تتخذ المراهقة أشكالا مختلفة في المجتمعات المتحضرة التي تحدد للمراهق المعايير السلوكية و تضع له القواعد المقررة للسلوك²، وتمثل هذه الأشكال في :

- أ - مراهقة عادية تخلو من الصعوبات، فهي بهذا تكون سوية.
 - ب - مراهقة ينزل وينفرد فيها المراهق بنفسه وبذاته، ليتأملها ويتمعن في مشاكله وصعوباته، وهي بهذا تكون إنسحابية.
 - ج - مراهقة يتميز فيها المراهق بسلوك العدوان على نفسه وعلى الآخرين وحتى الأشياء، وهي بهذا تعتبر عدوانية.
- ورغم ذلك مهما كان السياق الاجتماعي الثقافي، فالمراهقة هي مرحلة الأزمة وعدم التوازن.

¹ خليل ميخائيل معوض، دراسة مقارنة في مشكلات المراهقين في المدن والريف، دار المعارف، القاهرة، 1971.

² عبد الرحمن عيسوي، سيكولوجية النمو، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1987.

ولكن الفرق القائم من مراهق إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى يكمن في حدة الأزمة وشدتها، وكذلك في الأنماط التي تتخذها والحلول التي تعطى لها. فالمرحلة تأخذ إذن طابعا خاصا حسب البيئة والوسط الاجتماعي الذي يحتضنها.

3 - الهوية عند المراهق:

يكون محور اهتمام المراهق في مرحلته النمائية هو الهوية حيث لا بد عليه من تحديد هويته وإيجاد دوره المناسب في المجتمع. و تعود فكرة أزمة الهوية في المراهقة إلى نظرية (1972) Erikson¹ للنمو الوجداني و الانفعالي حيث حدد بداية تشكل الهوية مرز اللحظة التي تتوقف فيها أهمية عملية التوحد أو التقمص. كما وضح أن شعور المراهق بهذه الأزمة يكون عميقا، ويتم حلها إما بتكوين هوية إيجابية أو هوية مضطربة. فالصراعات كما يراها Erikson موجودة كلها عند الميلاد لكنها تصبح أكثر سيطرة في مرحلة المراهقة. ويظهر الحل الإيجابي في الصحة النفسية، بينما يؤدي الحل السلبي إلى سوء التوافق. يشكل موضوع الهوية إذن أهمية كبرى من حيث أن معظم مشكلات المراهقة يمكن إرجاعها بشكل أو بآخر إلى عدم أو تأخر تكوين الهوية لدى المراهق. يحاول المراهق البحث عن المميزات الذاتية التي تميزه عن الآخرين وتهدف به إلى تحقيق شخصية متفردة ومتميزة.

¹Erik Erikson, adolescence et crise, Flammarion, paris, 1972.

لذلك تؤدي عملية البحث عن الأجوبة للأسئلة الملحة التي تخص أزمة الهوية ومختلف المواضيع والأحاسيس المتعلقة بها إلى تغيير الصورة الذاتية للمراهق، خاصة في الحالة التي لا يجد فيها دائما الجواب المقنع، مما يسبب له القلق والتوتر.

فهو لن يشعر بالتكامل حتى يخضع كل التوحدات الجزئية لإحساس شامل بالتفرد وموفقا بين مفهومه عن نفسه ومفهوم المجتمع.

أكد بدوره إليكس ميكشيللي¹ (1993) أنه مع بداية مرحلة أزمة ما قبل البلوغ، يتأصل الإحساس بالذات إذ يسعى المراهق إلى تحقيق ذاته، ويخضع إمكانياته للتجربة الواقعية، وهنا تبدأ مرحلة أخرى من التقمصات الجديدة و لاسيما في نهاية مرحلة المراهقة أو في مجراها .

هذا يعني أن المراهقة تشكل مرحلة يحسم فيها المراهق طبيعة هوية ذاته وتطوره والتي تسمح له بإدراك صورته الذاتية، كما يقوم بالبحث عن عملية تأكيد الذات التي تساعد كثيرا في قياس مدى نضج الهوية، وتتأثر صورته الذاتية خاصة عند ربط مختلف العلاقات الاجتماعية مع الآخرين، وتقبلهم أو نبذهم له.

ويصبح للمراهق رصيدا من العواطف والاتجاهات والميول، كما يكون تكيفه مع المجتمع انفعاليا وعقليا، حيث تتجه الانفعالات والتفكير معا نحو النضج، ويسمح

¹ إليكس ميكشيللي، الهوية، الطبعة العربية الأولى، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، 1993.

له الانتماء إلى المجتمع والاحتكاك به بتأكيد رغبته في التعبير عن ذاته وتحقيق استقلاليته وفرديته، بينما يثور ويتمرد إذا ما وجد ضغوطات تعوق رغبته.

بالنسبة لـ (1972) ¹ Bianka Zazzo ، تتوقف صورة الذات عند المراهق على صورته ونظريته للآخرين بحيث يمكنه ذلك من معرفة ذاته وهويته وإدراكها بصورة جيدة.

ويمثل الشعور بالاختلاف عن الآخرين تعبيرا مباشرا على تأكيد وتحقيق ذات المراهق واستقلاليته الفردية.

خلاصة:

تأخذ المراهقة شكل التناقض في الحياة النفسية الاجتماعية، فهي تتميز بالصدق عندما يكون المراهق محتاجا لأن يكون متفقا مع نفسه، يميل فيها للتعبير عن ذاته والبحث عن استقراره نفسيا، وبعد الصدق عندما يبحث عن نفسه عن طريق عدة ادوار كميّله إلى التناقض.

تنشأ مختلف الصراعات النفسية الاجتماعية التي يعيشها المراهق بكل أحاسيسه بين مجموعة دوافع قوية تدور حول البحث لنفسه عن مركز ومكانة في المجتمع، وبين موانع وضغوطات واتجاهات المجتمع.

في الوقت نفسه، ترجع هذه الصراعات المتكونة في أعماق ذاته إلى عدم أو تأخر تكوين الهوية لديه.

¹Bianka Zazzo, Psychologie différentielle de l'adolescence, 2^{ème} édition, PUF, Paris 1972.

قائمة المراجع:

- 1 -إليكس ميكشيللي، الهوية، الطبعة العربية الأولى، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، 1993.
- 2 -خليل ميخائيل معوض، دراسة مقارنة في مشكلات المراهقين في المدن والريف، دار المعارف، القاهرة، 1971.
- 3 -زين العابدين درويش، علم النفس الاجتماعي: أسسه وتطبيقاته، الطبعة الأولى، مطابع زمزم، القاهرة، 1993.
- 4 -عبد الرحمان العيسوي، سيكولوجية النمو، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- 5 -فاخر عاقل، علم النفس التربوي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1980.
- 6 -فؤاد البهي السيد، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، الطبعة الرابعة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1975.
- 7 - محمد مصطفى زيدان، دراسة سيكولوجية تربوية لتلميذ التعليم العام، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباع، جدة، المملكة العربية السعودية، 1975.
- 8- Bianka Zazzo, psychologie différentielle de l'adolescence, 2ème édition, P.U.F. paris, 1972.
- 9- Erik, H , Erikson , adolescence et crise, Flammarion, paris, 1972.